الصراع العمانى ـ البرتغالى

في القرنين السادس عشر والسابع عشر

د . جمال زكريا قاسم

بعد نجاح البرتغاليين فى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ووصولهم إلى الهند فى اوائل القرن الـ١٦ بداية الاستعمار الأوربى فى العصر الحديث . وقد نجم عن السيطرة البرتغالية على بحار الشرق تطبيق أسلوب الاحتكار الذى تميز به البرتغاليون وما عمدوا إليه من حرمان القوى الملاحية المحلية من المشاركة بنصيب فى تجارة الشرق بما اتبعوه من أساليب شاذة وقاسية فى المعاملة ، ولذلك فان وصول البرتغاليين إلى الهند يعد نهاية للعصر الذهبى للملاحة العربية والإسلامية فى بحار الشرق .

وكان مما ساعد على إحكام السيطرة البرتغالية افتقاد القوى المحلية للوحدة فيما بينها بسبب انقساماتها وخلافاتها ، فضلا عن أن القوى الإسلامية الكبرى ـ الدولة العثمانية والصفوية ـ انشغلتا فى صراعاتهما المذهبية بل بلغ الأمر بالدولة الصفوية إلى التحالف مع البرتغاليين للتخلص من منافسة الدولة العثمانية لها فى سواحل الخليج . ولا شك أن هذه الظروف هى التى مكنت للبرتغاليين من إحكام سيطرتهم على تجارة الشرق حتى منتصف القرن الـ ١٧ حينما بدأت القوة البرتغالية تعانى مرحلة من التصدع والانهيار .

وقد حلل الدارسون أسباب انهيار السيطرة البرتغالية فى بحار الشرق وارجعوها إلى عدة عوامل من بينها : عدم قدرة البرتغال وهى الدولة المحدودة المساحة والسكان من السيطرة على إمبراطورية ساحلية ضخمة

---

* أستاذ التاريخ الحديث وعميد كلية الآداب ـ جامعة عين شمس

امتدت من لشبونة إلى كاليكوت ، فضلا عن أن البرتغال خضعت للتاج الأسبانى عام ١٥٨٠ وأصبحت لا تعدو كونها مقاطعة أسبانية ، ولما كانت اسبانيا منغمسة فى حروب بينها وبين دول أوربية أخرى فان هذه الدول انقضت على الممتلكات البرتغالية فى بحار الشرق باعتبارها جزءاً من الامبراطورية الاسبانية ، ولم تجد البرتغال من هذه الممتلكات عند انفصالها عن التاج الاسبانى فى عام ١٦٤٠ سوى أجزاء متناثرة .

وعلى الرغم من وجاهة تلك التحليلات إلا أن كثيراً من المصادر الأجنبية سكتت عن الدور الذى قام به اليعاربه فى عمان فى إنهيار الامبراطورية البرتغالية فى بحار الشرق. ولذلك فقد حاولنا فى هذه الدراسة تتبع الجهود العمانية فى التصدى للبرتغاليين. وقد ساعد العمانيين على إحراز تفوقهم نجاحهم فى توحيد معظم قبائل الخليج تحت زعامتهم الدينية والسياسية فقد حقق الإمام ناصر بن مرشد مؤسس أسرة اليعاربة فى عمان نجاحاً كبيراً فى صراعه ضد البرتغاليين ، تمكن به من طردهم من بعض موانىء وجزر الخليج بل وإنتزاع تعهد منهم عام ١٦٤٨ بدفع الجزية السنوية إلى عمان وإطلاق حرية الملاحة لجميع الأمم فى مياه الخليج والمحيط الهندى . وقد تابع خلفاء ناصر بن مرشد جهودهم البحرية لتحرير شواطىء الخليج من سيطرة البرتغاليين تحت راية « الجهاد الدينى » . ولم يقتصر حكام اليعاربة على منطقة الخليج العربى فحسب بل امتدت جهودهم إلى المعاقل البرتغالية فى الهند وسواحل شرق أفريقيا وخاصة بعد أن استنجد بهم السكان العرب فى ممباسا وزنجبار ، وأثناء الصراع البرتغالى العمانى تبودلت عدة رسائل بين الإمام سيف بن سلطان وبعض القادة البرتغاليين ، ويظهر لنا من تحليل تلك الرسائل مدى القوة البحرية التى بلغها العمانيون فضلا عما اتسم به أسلوب تلك الرسائل من تحد وتعصب دينى صارخ تميز به البرتغاليون فى تلك الفترة . ويرجع نجاح العمانيين فى طرد البرتغاليين من مسقط وإسقاط قلاعهم من معظم سواحل شرق أفريقيا إلى نجاح العمانيين فى بناء السفن الكبيرة على

الطراز الأوربى الحديث إضافة إلى نجاحهم فى توحيد القبائل العمانية ، وساعد ذلك على تكوين امبراطورية عمانية امتدت إلى سواحل شرق افريقيا فى الوقت الذى انشغلت فيه القوى الأوربية بمنافساتها الاستعمارية فى الهند ، ولم تنتبه إلى نمو هذه القوة المحلية الكبيرة ، ولكن ما كاد الانجليز يحرزون قصب السبق فى منافساتهم مع الدول الأوربية حتى أدركوا الخطر الكامن فى تصاعد القوة العمانية فى الجزء الغربى من المحيط الهندى ، وبدأت مرحلة جديدة من تصدى بريطانيا للدولة العمانية إنتهت بتفكيك أجزائها وفصل قسمها الأسيوى عن الأفريقى وفرض الحماية البريطانية على القسمين . ومما لا شك فيه أن إختراع البخار وإستخدامه فى الأسطول الانجليزى وضع حداً للتفوق الملاحى الذى تميزت به عمان فى القرنين السابع عشر والثامن عشر .

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF ARAB RESEARCH AND STUDIES
عضو اتحاد الجامعات العربية